قراءة في كتاب

"النَّكْبَة": تَرميمُ ذَاكِرَةٍ مُتَدَاعِيَة

دعاء جبر

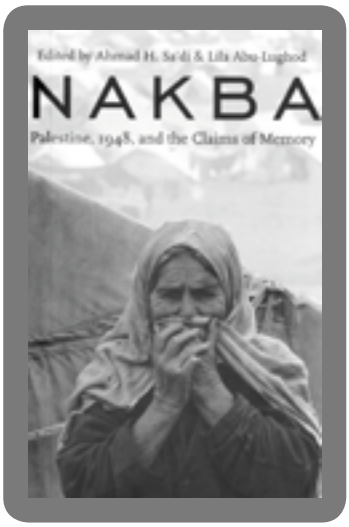

"**النكبة: فلسطين، 1948، ومطالب الذاكرة**" (*Nakba: Palestine, 1948, and the Claims of Memory*) كتاب باللغة الإنجليزية صادر عن جامعة كولومبيا- 2007، محررا الكتاب هما أحمد السعدي أستاذ جامعي في مجال السياسة في جامعة بن غوريون، وليلى أبو لغد أستاذة جامعية في الأنثروبولوجيا في جامعة كولومبيا. يجمع الكتاب بين دفتيه مساهمات عديدة تتمحور جميعها حول ذكريات النكبة وتشكلاتها ومضامينها وتجلياتها وأطيافها بعد مرور عشرات السنوات على مأساة فلسطين. يتوزع الكتاب في ثلاثة محاور "أماكن الذاكرة" (Places of Memory) و"تشكلات الذاكرة" (Modes of Memory)، و"اختلال الذاكرة" (Faultlines of Memory). وتتفق هذه المحاور على أنه لا توجد ذاكرة نقية صافية غير متواسطة، بل إن الذكرى تعيش وترتج وتنزاح وفق تأرجحات الواقع وإمكانياته، مؤتلفة مع من عاش النكبة وجندره وعمره، متأثرة بورثة الحكايا وقاصّيها وعلاقتهم بمن عايش تلك الأحداث أو سردها. وهكذا يتطرق الكتاب إلى تراكم الذكريات بشكل فردي وجمعي لدى الفلسطينيين، إذ ينتزع المؤلفون هذه الذكريات من أصحابها، من خلال حثهم على استذكار واعٍ ومتعمّد لوقائع النكبة بهدف التوثيق والتسجيل.

لماذا -بعد ستين عاماً- يتعلق الكتاب الفلسطينيون بالماضي؟ لماذا يتشبثون بالتاريخ؟ ما سر السعادة في استرجاع ذكريات النكبة الأليمة وإعادتها؟ لماذا يختار الفلسطينيون أن يعيشوا حبيسي ذكرى الأمكنة القديمة والخرائب المهدمة والقرى المندثرة؟ لماذا يحتفظون بمقتنيات أثرية من بيوتهم المهجورة؟ ألا تسبب الذكريات الحية لمأساة العام 1948 الهائلة شعوراً لدى الفلسطينيين بأن معاناتهم اليوم هي مجرد صور باهتة وصدى خافت لما جرى؟ لماذا استرجاع الأسى واجترار الألم؟ لماذا زيادة العبء على أنفسنا وتحميل طاقاتنا ما لا تحتمل؟ ربما لأنه عندما تختزن الآلام المنفردة للذكرى وتتراكم وتتكدس، لا يمكن بعد ذلك الفرار منها أو إبعادها، على الأقل لأجيال عدة لاحقة، أو ربما لأن مقاسمة ذكريات النكبة ترسّخ الهوية، وتروّض الصدمة، وتثبّت حقوق الفلسطينيين السياسية والمعنوية في العدالة والتعويض والعودة، وقد تكون محاولات للإمساك بذكرى الوطن المسلوب، لعل توثيق الذكرى ينقذ ما يمكن إنقاذه من الرواية المقموعة المطموسة أمام الرواية الإسرائيلية المجلجلة التي تنكر النكبة وتنفيها وتتجاهلها.

الكتاب في مدار بحثه ليس تأريخاً دقيقاً للنكبة، هو ليس عملاً وثائقياً يرصد التفاصيل ويفصّل الظروف، لكنه يتطرق إلى النكبة كنقطة بداية للشتات المديد، فعلى الرغم من أن الذاكرة الفلسطينية الجمعية والهوية الوطنية تتكئ على ما حدث، فإن فهم ما جرى العام 1948 بدقة، ما زال أمراً شائكاً. تذكر روزماري أن غياب السرد والحكايا الفلسطينية عمّا جرى، وقوة اليهود المنتصرين وسيطرتهم، والنزوح والانفصال عن السجلات والأمكنة والآثار، وتفرق الباحثين واندثار المؤسسات الثقافية، كل ذلك يجعل دراسة النكبة أمراً صعباً مليئاً بالتحديات، ويجعل "تاريخنا مجهولاً" على حد قول اللاجئين في المخيمات الفلسطينية في لبنان (ص: 152). كما تنقل أبو لغد عن والدها الباحث والمؤرخ الذي عاش قلقا يهجس بفلسطين رأيه، فعلى الرغم من قوة النكبة وتأثيرها الذي هشّم واقع الفلسطينيين آنذاك، وعلى الرغم من أنها تشكل جزءاً مهماً من الموروث الوطني، فإنها الموضوع الوحيد الذي لم يسجّل من وجهة نظر الضحية (ص: 91)، ولهذا لا يمكن فهم التجربة الفلسطينية بمعزل عن شهادات الضحايا، ودون إعادة تشكيل الحدث بكل تعقيداته. لذا، فقد شجع أبو لغد الناجين من المجازر والمهاجرين من قراهم أن يسردوا ما جرى، وأن يعيدوا سلسلة الأحداث، لم يكن يهتم بروايات المثقفين والمفكرين فحسب، بل أصغى كذلك لسرد النساء في المخيمات ولقصص الفلاحين السابقين، وسجلها للبحث وللدراسة، حتى أنه صاغ مقترحاً لتأسيس متحف للذاكرة الفلسطينية من أجل الحفاظ على الموروث الجماعي.

وتورد سليموفيكس اقتباساً لعبد الجواد يذكر فيه أن فلسطين العام 1948 هي حالة مثالية لتاريخ مليء بالفجوات بين واقع مفبرك لفقّه التأريخ الإسرائيلي ينكر النكبة وينفي جريمة التطهير العرقي ضد الفلسطينيين، وبين تأريخ غائب ومضيّع من قبل العرب والفلسطينيين الذين لم ينجحوا

أبداً في تشكيل رواية جماعية كاملة تتصدى للرواية الإسرائيلية المدوية وتواجه حجم الحدث (ص : 28).

لقد جاء كتاب "**النكبة: فلسطين، 1948، ومطالب الذاكرة**" بعد ستين عاماً ليسد بعض ثقوب الذاكرة الجمعية، ويرمم الفراغات المغيبة، فيسرد الوقائع من وجهة نظر الضحية، ويسمع كل الأصوات الخرساء، ويعيد كل الأمكنة المفقودة والقرى المدمرة إلى الحياة، وبهذا فإن الكتاب يشكل مرجعاً غنياً للذاكرة الفلسطينية ويحفظها من النسيان.

إن النكبة ليست قضية أرض وحدود ونزاعات فحسب، بل هي أولاً قضية إنسان اكتوى بنار التشرد وألم المأساة، هذا الكتاب يعيد لما جرى الدفق الإنساني بسرد ذكريات عاشت على امتداد ستة عقود، تجلت بهذه القصص التي نرى فيها أشخاصاً عاديين يشبهوننا، حائرين متلهفين مترقبين . . . نراهم بعيداً عن الصراعات السياسية، وعن الشعارات الرنانة التي أهدرت العمق الإنساني للنكبة. وهكذا، فالكتاب وثيقة مهمة عن مأساة أناس منكوبين يمكن لكل قارئ يمتلك حساً دافئاً وعاطفة إنسانية أن يتفاعل معه وينفعل به، يمكن لكل إنسان في أي ثقافة أن يستقبله وأن يتأثر به.

غلاف الكتاب لونه أصفر مرمّد، يوحي بحزن الغياب وهجير الاغتراب، في الخلفية توجد خيمة، تبرز أمامها صورة امرأة متقدمة في السن، تملأ الخطوط والتجاعيد وجهها ويديها، هي بلا شك أم وجدة، لكن ليس لها اسم أو عنوان، كما ليس لها رأي في نشر صورتها، هي لا تنتحب ولا تولول ولا تصيح ولا تلطم وجهها، على رأسها شال يغطي شعرها وينهدل على كتفيها، هي تمسك بيديها طرف الشال على وجهها فلا يظهر فمها، لعل شفتيها تتلوان كلاماً مقدساً أو تتمتمان صلوات وأدعية، عيناها غائرتان فلا تظهر نظراتهما بوضوح، لكنهما على الأغلب كانتا تبرقان بالدموع وهما ترنوان للمجهول، بالتأكيد كانت تنتظر أن تمر الدقائق والساعات والأيام المحملة بأصداء الهواجس حتى ترجع إلى بيتها، إلى أن اكتشفت شيئاً فشيئاً بأنها أبداً لن تعود، يا لها من صورة حزينة مروعة مفزعة، توحي بالمهانة والشفقة، إنها صورة تساوي آلاف الكلمات!

ليست صورة الغلاف هذه هي الوحيدة المؤثرة في الكتاب، فهناك صور أخرى غاية في الدقة والتأثير، إلا أنها مرسومة بخيال الكلمات والعبارات التي تتراوح بين الخفوت والجهارة، وبين الغياب والهيمنة، كلها صور حزينة مملوءة بالذكريات والأصداء والظلال.

أودّ في هذه القراءة أن أشير إلى ثلاثة من هذه الصور التي تصف مشاعر النفي واللوعة والاشتياق، مشاهد مختلفة عمّا نألفه من المشاهد المعتادة للاجئين الفلسطينيين التي نراها باستمرار في نشرات الأخبار وعلى صفحات الجرائد، إنها صور عودة مغتربين إلى يافا البحر والسماء، ويافا الموج والغيوم.

قد لا تكون هذه الصور أهمّ ما ورد في هذا الكتاب، لكنها بعينيّ من أحلى ما جاء فيه، هي ليست مجرد سرد، بل هي حنين يتسع ليصف الماضي وما كان، والحاضر وما يستحيل أن يكون، هي إحساس مرهف يتسلل إلى ذهن القارئ ووجدانه، فيرى عمق إنسانية الكاتب ويلامس أحلامه، ويستمع لمخاوفه ويحس بنبضات روحه.

لا يعود هؤلاء المنفيون الذين أجبروا على مغادرة بيوتهم وحدهم، بل يرجعون برفقة أحد أبناء الجيل الثاني للنكبة الذين ورثوا الذكريات والقصص كما ورثوا اللجوء والاغتراب، هؤلاء الأبناء هم الذين يرسمون بالكلمات هذه المشاهد. إنها زيارات حزينة جميلة، مطلقة للمشاعر ومحررة للذكريات.

في كل قصة رجوع قصة نزوح، وفي كل إحساس باللهفة إحساس بالفقدان، إنها ذكرى عن ذكرى، إنسان يحكي عن إنسان يشبهه ويحبه ويسكن فيه. وعلى الرغم من أن الحكايا التالية هي روايات فردية خالصة تخص الكتاب وأقاربهم، فإنها تنطلق من ذاتية الكاتب الخاصة إلى الوعي الفلسطيني، بل إلى الوعي الإنساني العام، فهي نماذج إنسانية جميلة، نستقبلها بحرارة على صعيد الفكر والوجدان، حكايا ننساق معها وننشغل بها فتعلق في الذاكرة، وتنقش في المخيلة، كيف لا وهي قصص لاجئين عاشوا المعاناة والتشرد، لكنهم آمنوا بالحلم والمثابرة، فعادوا وأثّروا وما زالوا يؤثرون بنا.

"نادانا البحر ويومه سحر فهيأناه المجدافا، نلمح في الخاطر أطيافا عدنا بالشوق إلى يافا. . . " .

في مقدمة الكتاب، يورد المحرران قصة ريما حمامي مختصة في الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، ولاجئة من الجيل الثاني، تصف شعورها عندما تقف للمرة الأولى أمام بيت في يافا، تعتقد جازمة أنه كان سابقاً بيت جدها، بمجرد أن رأت الأقواس الأمامية أصيبت بصدمة التعرف، فقد ميزت البيت من صورة قديمة أمام البرندة التي تنظر الآن إليها، كانت في الصورة بنات صغيرات يبدون بمنتهى البراءة. . . وحيث وجدت ريما باب البيت مفتوحاً دخلت واجمة تاركة عمتها التي سكنت هذا البيت مفجوعة من هول الصدمة تأبى النزول من السيارة التي تنتظر على باب البيت. ها هي أخيراً في هذا البيت الذي طالما رأت صورته وسمعت عنه، كانت مدهوشة حالمة وهي تعبر البوابة المفتوحة عندما عادت من حلمها على صوت ينده عليها بالعبرية، أدركت لحظتها أنها في مكان مختلف عمّا كان، كانت في مكان مليء بالأطفال المعاقين، ردّت بالإنجليزية على الأسئلة الموجهة إليها بالعبرية، فاستدعوا لها مسؤولاً يتحدث الإنجليزية، قالت له إنها تريد فقط أن ترى هذا المكان الذي كان مرة بيت جدها، وبعد أن استجوبها ليتأكد من صحة إدعاءاتها، أخذها وسار بها إلى منحوتة على حائط، أشار إلى المنحوتة وأخبرها بنشوة أن هذه اللوحة تمثّل عودة الشعب اليهودي إلى أرض إسرائيل، وأنها ترمز إلى قيام الدولة الإسرائيلية، وبعد أن اختتم حديثه إليها ترنّم بما يشبه الترتيلة، لم تجد قدرة على الكلام لترد عليه، وعلى ردة فعله اتجاه طلبها، بدا لها أن ما فعله بها ضرباً من السادية، استطاعت فقط أن تتمتم أن كل ما تبتغيه هو أن تلقي نظرة على البيت فحسب.

هذه العودة الفضولية لابنة من الجيل الثاني هي أشبه بالمغامرة للبحث عن الذكرى في ارتياد الأمكنة المهجورة. إنها القصة التي تفتتح الكتاب وتلخص حكاية الفلسطينيين والنكبة، فيها بيت الجد المهجور، وزيارة

الحفيدة المغتربة إلى المسكن المغصوب، فيها متبقية لاجئة عاشت تجربة التهجير لكنها من هول الصدمة لا تحتمل الدخول إلى بيتها الذي كان. في هذه القصة رواية المنتصر المتبجح عن حقيقة عودة اليهود إلى إسرائيل، رواية واحدة أحادية الحقيقة مجلجلة تصعب أمامها تمتمة أي حقيقة أخرى. ترى أبو لغد أن هذه القصة تجسد الملامح المميزة للذاكرة الفلسطينية التي تصارع مهددة لتجد مكاناً في ظل رواية محكمة مدعومة بالسياسة الدولية (ص: 2).

قد يؤمن البعض أن الإنسان تراب يفنى أما روحه فتبقى خالدة، وربما يكون الموت بداية الراحة، حيث يتوقف العقل عن التفكير المضني والقلب عن الألم المفجع في عالم أزلي ليس فيه معنى للزمان والتاريخ، ولا للمكان والجغرافيا، لكن ليست هذه حال الموت وما بعده بالنسبة لفلسطيني تهجر من موطنه، ونزح عن أرضه، فصار حلمه أن يدفن فيه. أخيراً عاد إبراهيم أبو لغد اللاجئ الفلسطيني الذي يحمل الجنسية الأمريكية ليكون الأول الذي يدفن في موطنه يافا، لم تكن عودته الأبدية إلى هناك سهلة مطلقاً، فقد احتاجت إلى الكثير من العلاقات والتنسيقات والوساطات ليجتاز الحواجز العسكرية الإسرائيلية. كانت أسرته تريد فقط تحقيق رغبته في أن يوارى الثرى في مسقط رأسه، إلى جانب البحر الذي سبح فيه صغيراً، لكن فلسطينيين آخرين رأوا في هذا الحدث فرصة للدفاع عن حقوقهم في وجه الهيمنة الإسرائيلية.

في جزء بعنوان "العودة إلى أنصاف خرائب" (Return to Half-Ruins) تصف ليلى أبو لغد بطريقة شاعرية للغاية علاقتها بكل ذكريات والدها عن أيامه في يافا، وعن كتبه وكتاباته حول فلسطين، وعن الأمكنة التي سكنها، وعن عودته الأبدية إلى موطنه، تذكر أن والدها كان يشجع كل فلسطيني على العودة من الشتات على الرغم من المعاناة المنتظرة والاستجوابات الحتمية، وتفتيش الحقائب، وخلع الأحذية، وتجميع الفلسطينيين في مناطق مقسمة ومعزولة . . . لم يكن يشعر أبداً بالمرارة، بل كان يرى هذه الصعوبات كعقبات، كان يعتقد بأنه لا يمكن الصمود والتحدي مع الشعور بالمرارة، كان يرى أنه على الفلسطينيين التحدي معاً، كان ينادي بالمساواة وبإزالة الحواجز، كان يؤمن بأنه لا يمكن النضال من بعيد، لذلك كان يعتبر العودة إلى فلسطين أمراً ملزماً، لأن الكفاح يحتاج إلى مقاومين متواجدين على الأرض، كان يرى أن الفلسطينيين ارتكبوا خطأ جسيماً عندما ولّوا الأدبار في الـ 1948، مع أنه كان يعلم تماماً أنه لم يكن بإمكانهم غير ذلك.

تتنقل الكاتبة في وصف الأشياء والتفاصيل المتعلقة بوالدها من لوحات تذكارية ليافا معلقة على حائط شقته في رام الله، إلى حرصه على أن يطوف بها مع عائلتها الصغيرة في فلسطين من القدس إلى بيت لحم، من نابلس إلى الناصرة، ومن أريحا إلى عكا، إلى وصف الشعور بالخوف الذي كان يعتريها ووالدها يقترب من الحواجز العسكرية، أو عندما يضل طريقه بسبب عدم قدرته على قراءة العبرية، كما تحكي عن صمتها بخجل في زيارات الأصحاب عندما يتحول الكلام إلى السياسة، وعن خشيتها من إحراج والدها بسبب عدم طلاقة لغتها العربية . . . تتحدث علانية وبسخاء عن قصص والدها في يافا، تذكر أنه ومجموعة من أصحابه كانوا يعملون بجد واجتهاد للتعلم وللتقدم ولإثبات أنفسهم، إذ لم يكونوا من العائلات المعروفة أو الغنية، وأنه كان يعتبر معلميه استثنائيين، إذ تعلم منهم الكثير أثناء أحاديثهم في ساحة المدرسة، وأثناء تنظيم المظاهرات، وأثناء تشكيل اتحاد الطلبة الفلسطينيين. تروي ذكرياته عن دراسته المثابرة لامتحانات المدرسة النهائية التي تأجلت عن موعدها بسبب القتال والنزاع المحتدم في البلاد، ثم تقديم الامتحانات المؤجلة في مدرسة تهدّم سقفها، ثم الاستماع إلى نبأ نجاحه وزملائه وهو لاجئ في بيروت، أي فرحة نجاح هذه وهو كالكثيرين غيره لاجئ بلا مستقبل؟! والدها المؤرخ والباحث في موضوع النزاع العربي الإسرائيلي درس تاريخ فلسطين ووثقه، حمل البارودة شاباً وهو ابن التاسعة عشرة ليدافع عن يافا، ووثق لاحقاً لمجزرة ارتكبتها مجموعات الأرغون والهغاناة عندما نسفت بالديناميت قصر العدل وقتلت 60 شخصا في رعاية الشؤون الاجتماعية قرب المكان الذي كان محتمياً فيه من القتال قرب سكنه الأصلي، وكان ينفي بشدة مزاعم المؤرخين الإسرائيليين في أن هدف القصف كان مركز القيادة للجنة الوطنية، مزاعم وادعاءات لا تزال تتردد بعد كل مجزرة إسرائيلية في أي زمان وأي مكان.

تقول الكاتبة "لم أكن أستطيع أن أربط بمخيلتي بين والدي ذي الشعر الأبيض والبيريه الأسود والموسيقى الكلاسيكية المنبعثة من راديو سيارته، وبين ما كان يرويه من قصص وذكريات عن أيامه في يافا وعن نفيه منها".

ليست القصص والذكريات وليست رغبة والدها المتبتل العاشق بالعودة إلى يافا، هي وحدها التي دفعتها لتكتب عن النكبة، بل إنها أيضاً المعاناة والإهانة التي شهدتها في المطار وأثناء زيارتها لفلسطين، وغطرسة الجنود الإسرائيليين المنتشرين في كل مكان، وهدم البيوت، وقصف طائرات الأباتشي، والإذلال على الحواجز، وبناء الجدار العنصري، والاشتياق واللوعة في جنب كل فلسطيني مهجر يحلم بالعبور إلى بيت لم يعد موجوداً. هذه الأشياء التي اختبرتها بنفسها جعلتها تكتب عن النكبة. لهذا كله، جاءت كتابتها مؤثرة وحارّة، تفيض عاطفة ووجداً، وتداهم كل ابنة تحب والدها، وكل فلسطيني لا يقوى على النسيان، وكل قارئ يتمتع بشيء من المشاعر الإنسانية.

في جزء بعنوان "الزيارات السرية للذاكرة" (The Secret Visitations of Memory)، يجول بنا عمر القطان في دنيا لا أول لها ولا آخر من الخواطر والأفكار والأطياف المتعلقة بفلسطين، التي تشد القارئ بدقة وصفها وبراعة تأثيرها، صفحات مليئة بالذكريات التي قصّها عليه والداه أو عايشها بنفسه، يصف كيف تحولت يافا المدينة الثرية الموسرة قبل الاحتلال الإسرائيلي، إلى مدينة حشيش وملل بعده، وكيف تغير المجتمع الفلسطيني البسيط إلى مجتمع معقد مليء بالتناقضات، ويناقش كيف يختلف الأفراد في تذكر الأحداث بألوانها وأرقامها ومتعلقاتها، ويروي أحداث سهرة يافوية ويتأمل بها وبأناسها، ويحكي لماذا غادر والده المجلس الفلسطيني الوطني، ويتحدث عن وليمة غداء دعي إليها برفقة والده عند الرئيس ياسر عرفات ويفصّل أحداثها ويبين ما جرى فيها، ويحلل معاني السلطة في السياق الفلسطيني، ثم يروي قصص أفلام عن الصراع بين المهجّرين في المخيمات وأبنائهم "قدروا الناس يوصلوا للقمر، ونحن لا نقدر الرجوع إلى بيوتنا؟! لأ سنرجع . . . "، وقصصاً أخرى عن شجاعة الأطفال في مواجهة القذائف، وعن طفلة لا تبكي على الرغم من ألمها حتى لا يحزن

أخوها، يتحدث عن علاقة الآباء بالأبناء، وتوريث الذكريات كما الأعباء، ويعطي القارئ تأشيرة الدخول إلى عالمه الخاص، فيحكي عن خوفه الطفولي من فقدان أحد الوالدين، ويروي كيف يضحك والده من والدته لكثرة نسيانها الأسماء والأرقام، ويسرد بعض ذكريات أمه عن بيتها في طولكرم: بطيخ تحت الأسرّة، وبطيخ في البلكونة، بطيخ في كل مكان، ويصف رجوعه معها لزيارة بيتها في طولكرم بعد طول غياب، ويأخذ القارئ إلى بيت طفولته في بيروت، وإلى القبو الذي طالما امتلأ بصدى لعب الأطفال، ذلك القبو الذي استخدم لاحقاً كسجن أيام حرب لبنان الأهلية، حيث عثرت على جدرانه كتابات محفورة مستميتة لفلسطينيين يائسين، كذلك وجدت على الجدران بقاياهم البشرية . . . يغمرنا بالتفاصيل والدقائق المتسلسلة والمتناسقة التي تتغلغل في مخيلة القارئ، فتثير فيه الحزن واللذة والرهبة.

في بداية هذا الفصل، يصوّر الكاتب عودة والده المؤقتة لإلقاء نظرة على بيته المهجور في يافا. لقد غادر عبد المحسن القطان المدينة العام 1947 للدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت، ومنذ ذلك الوقت لم يعد إليها. بعد مدة طويلة، قرر أن يعود، كان يود زيارة برامج تنموية عدة أنشأها أو ساهم في تمويلها في فلسطين، كما كان سينال درجة تقديرية من جامعة بيرزيت تقديراً لأعماله، لذا فقد أدرج في جدول عودته الكثير من المهام والمواعيد والزيارات. لكن الكاتب يتساءل إن كان هذا الازدحام في برنامجه هو بمثابة جنّة يلجأ إليها لتقيه الهزّات العاطفية التي كان يتوقعها في زيارته ويخشى مواجهتها. بمجرد وصوله إلى هناك، استبدت بوالده رغبة فورية لزيارة البيت الذي سكنه في يافا، رغبة ممزوجة بإثارة طفولية وأسى توّاق. وصل إلى يافا برفقة عدد من الأصحاب، وسأل أهل البلد عن مكان البيت مسترشداً بما يحمله من بقايا الذكريات عن الموقع، تم تحديد البناء في منطقة الجبلية بجانب جامع وقرب مدرسة الأيوبية، بيت أمامه شجرة جميز. ولدهشة الجميع، ما أن اقتربوا من المنطقة حتى ميّز الوالد البناء، مؤكداً دون أي شك أنه بيته "ها هو، أنا متأكد. سكنّا في الطابق الثاني. هذا بيتنا الذي توفي فيه والدي. وها هي شجرة الجميز، ها هي المدرسة، وهناك الجامع، وهذا الطريق المؤدي إلى شاطئ الشباب، حيث كنا نسبح، عجباً، ها أنا أنظر إليه كما كنت أفعل قبل خمسين عاماً، لكن أين البيوت الأخرى؟ لقد كان الشارع مليئاً بالبيوت". نظروا حيث يشير، كان الشارع خالياً من أي مبنى. وعرفوا بعد ذلك أن البيت الذي سكنه الوالد، ذلك المبنى العثماني الجميل، تم بيعه مؤخرا بالمزاد العلني إلى شقيق وزير إسرائيلي سابق، فغالباً ما يتم بيع ممتلكات "الغائبين" بالمزادات العلنية مع ضمان أن لا تباع ثانية للسكان العرب.

بالنسبة للكاتب، لم تكن هذه العودة مجرد رحلة استكشاف إلى بيت مهجور اضطر الوالد إلى مغادرته مرغماً، بل كانت بمثابة دعوة للتأمل في ضرورة التمسك بذكريات العام 1948 على الرغم من ثقلها المرهق، فلا معنى لأي شيء بالنسبة للفلسطينيين دون هذه الذكرى، ودون هذا التاريخ.

هذه بعض الصور التي وردت في الكتاب، وهناك عشرات المئات من القصص الأخرى التي لم ترد، قصص النكبة الحية التي لا تزال تتكرر بين الفلسطينيين وتلاحقهم في منفاهم ومخيماتهم وسجونهم وألمهم وفقرهم، أغلبية هؤلاء لا يتقنون كتابة الإنجليزية، ولا يجيدون التعبير عن أنفسهم، ولا يمتلكون رفاهية الابتعاد عن النكبة والتأمل فيها، هؤلاء شغلهم الشاغل وصلب اهتمامهم ومحور إبداعهم منصب على إيجاد لقمة العيش، وتحقيق أمن أفراد عائلاتهم وسلامتهم. لهذا، فالذاكرة الفلسطينية موجعة بشكل خاص، إذ أن جرحها لم يندمل بعد، فلا زالت تصارع ضد واقع يزداد قساوة. إن الفلسطينيين ما زالوا يواجهون ازدحاماً شديداً في تذكر الأحداث المؤلمة التي ما فتئت تعصف بنا، ما يجعل استرجاع ما جرى واجترار الأسى محبطاً ومزعجاً، ويحول الذكريات إلى قصص جوفاء فارغة تملأنا كمداً ومرارة، ولن تكون هذه القصص مجدية ومعبّرة إلا إذا استنفرتنا وأعطتنا دفعة للأمل والتقدم، وهذا ما نشهده في هذا الكتاب، نخبة من أبناء الجيل الثاني لمهجّري النكبة ممن تمكنوا من إتمام دراستهم ومزاولة أعمالهم وممارسة نشاطهم الثقافي يرفضون النسيان، ويتذكرون، ويسترجعون ما جرى، ويكتبون رواية مغايرة طمست واندثرت أمام التأريخ الإسرائيلي العنيف في قمع كل أصوات المنكوبين، هم يحكون استمرارية الحكاية لا نهايتها، وبهذا يؤكدون على انتمائهم ووجودهم واعتزازهم بوطنهم.

دعاء جبر – مركز القطان

المرجع

- Abu-Lughod & Sa'di (2007) (Eds.), *Nakba: Palestine, 1948, and the Claims of Memory*, Columbia University Press.